الثقافية الإفريقية
مؤثرات واتجاهات

د. آدَمَ بَـمْبا
أكاديمي وباحث- كوت ديفوار- أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

لا يكاد الباحث يخوض ميدان الثقافة الإفريقية حتى تعترض طريقه عدّة عوائق، منها: أعن ((ثقافات)) (بالجمع) يتحدّث أم عن ((ثقافة)) (بالإفراد)؛ لقارةٍ مترامية الأطراف، ولمجموعاتٍ إثنية يُقدّر مجموعها بأكثر من ألفَيْ إثنيةٍ مميّزة؟ عائقٌ آخر: عن أيّ ثقافة/ ثقافات يتحدّث، والثقافةُ نفسها ظاهرةٌ حيّة، متقلّبةٌ باستمرار؟ وحتى إذا حاول ترويض هذه الظّاهرة الجموح، فإنّ كثرة التّيارات والحركات الثقافية بالقارّة يجعلها صعبة المراس!

على الرّغم من تلك العوائق والعقبات؛ فإنّ الورقة الحالية تحاول اقتحام ميدان الثقافة الإفريقية، اقتحاماً متواضعاً؛ عبر عدّة محاور أساسية، هي:

المحور الأوّل: مفهوم الثقافة والثقافة الإفريقية:

١- مفهوم الثقافة:

للثقافة تعريفاتٌ كثيرة، متباينة الأبعاد بحسب رؤية كلّ باحثٍ في هذه الظّاهرة الإنسانية، وبتأكيد معجم الدراسات الثقافية في مدخل (Culture)؛ فإنّ هذا المصطلح أكثر

المفاهيم تعقُّداً؛ لأنّه لا يمثّل وحدةً مستقلّةً بذاتها، وإنّما دالّة متنقّلة لتحديد حالات كثيرةٍ من النّشاط البشريّ في ظروفٍ مختلفة[١]. وتجاوزاً لذلك لاستعراض بعض تعريفات الثقافة؛ فلعلّ أشهَرَ تعريفات الثقافة وأكثرها دوراناً ما أدلى به الباحث الأنثروبولوجي الشهير إدوارد تايلور (١٨٣٢-١٩١٧م)؛ إذ عرّفها بأنّها: «المجموع المركّب الذي يشمل المعارف والمعتقدات، والفنون والقوانين، والأخلاق والعادات، وجميع الكفاءات والعادات التي يكتسبها الإنسان؛ بوصفه عضواً في المجتمع»[٢].

وقريبٌ من تعريف تايلور، تعريف بيدنجتون (Piddington)؛ إذ قال: «يمكن تعريف ثقافة شعبٍ بأنّها مجموع المكتسبات المادية والفكرية التي تُشبِع حاجات الشعب البيولوجية والاجتماعية، وتحقّق تكيُّف الشعب ببيئته»[٣].

يتبيّن هنا أنّ كلا التّعريفَيْن للثّقافة تعريفٌ وصفيٌّ موضوعي، يريان أنّ الثقافة شاملةٌ لجميع جوانب الحياة المادية والمعنوية، وأنّها مكتسَبة، وزاد بيدنجتون قليلاً بالإشارة إلى البُعد الوظيفيّ في الثقافة، وهو اضطلاعها بتحقيق تكيُّف الفرد أو الجماعة بالبيئة التي يعيش فيها، ولا يسعنا هنا الخوض في جدل العلاقة بين الثقافة والحضارة: أيُّهما أشمل، وأيُّهما يُنتج الآخر، أم أنّهما شيءٌ واحد...؟

وإنّما يكفي هنا تسجيل عدّة حقائق عن الثقافة:

أ- الثقافة ذات علاقةٍ عضوية بالمجتمع: أي إذا وُجد مجتمعٌ، فلا بدّ من وجود ثقافة، لا مجتمع من دون ثقافة، ومن هنا تظهر سفسطة بعض الباحثين الأوسطيّين- حتى المعاصرين- الذين يصفون الثقافات الأخرى ببدائية، وينفون وجود دين وتاريخ وفلسفة لدى تلك الشُّعوب، فلو ثبت وجود شعبٍ من دون تلك المظاهر والأنساق الاجتماعية؛ لأمكن القول ببقاء مخلوقٍ حيٍّ-غير البكتيريات- من دون نظامٍ عضويٍّ من قلبٍ نابض، ودم، وجهاز هضمي، وغير ذلك من مقوّمات الحياة البيولوجية.

ب- الثقافة نسبية: تتوقّف ثقافة الفرد على ثقافة مجموعته، وهي بالتّالي تتحدّد بثقافة المجتمع الموسّع؛ لأنّ وظيفة الثقافة هي اضطلاعُها بتلبية حاجات الإنسان ومدّه بالأدوات والخبرات التي تحقّق له العيش بوئامٍ مع البشر والموجودات في بيئته[٤].

ج- الثقافة مكتسبة: الثقافة- من منظورٍ اجتماعيٍّ- أمرٌ متعلّم، وهي الفاصل بين البشر وبين سائر العجماوات؛ إذ سلوكها فطري، بينما هو عند الإنسان: مكتسَبٌ، متوارَث من جيلٍ لآخر، متقلّب، متعدّد؛ بحسب تعدُّد الجماعات البشرية، وهذا ما يُطلق عليه «قيَم اجتماعية»؛ وتعني: المعتقدات التي يتبنّاها المجتمع، ويحكم من خلالها على الأشياء والأفعال بالصّحيح والخطأ، والخير والشّر، والمقبول والمرفوض[٥]. فما يُعَدُّ قيمةً اجتماعية في مجتمعٍ بعينه؛ ليس بالضّرورة قيمةً اجتماعية في مجتمعٍ آخر، ولا يعني ذلك انتفاء وجود قيَم ثقافية عامّة بين جميع البشر مستعصية على اختلافات الزمان والمكان، منها: الصّدق، والعدل، والشجاعة، والصداقة، والوفاء... ويُشار إلى تلك القيم الثقافية الاجتماعية بـ«المشترك الإنساني»، فهي موحّدة بين البشر، ولكنّ طريقة تعبير كلّ مجموعةٍ عنها قد تختلف عنها لدى غيرها من المجموعات.

د- الثقافة شاملة للحياة: الثقافة من وجهة نظر أنثروبولوجية يمكن وصفها بأنّها: «كلّ ما يقوم به الفرد من أعمالٍ وتصرُّفات غير ناشئةٍ عن طبيعته البيولوجية، وهي على مستوى الجماعات: طريقة حياتها في كلّ وضعٍ من أوضاع الحياة»، ويشمل ذلك طريقة تفكيرها، وسلوكها، وقيَمها، ومعتقداتها، ورؤيتها للعالَم وحقائق الكون وظواهره، وكلّ ما تعلّمه الفرد، والمجموعة، وتصرّف به في إطار هذا التّعلُّم داخل مجموعته بما يكفل له الانسجام مع أفراد المجموعة.

هـ- الثقافة أصناف: من ناحيةٍ نظرية؛ يقسّم الباحثون

(١) Barker, Chris. (2004). The SAGE Dictionary of Cultural Studies, 44.

(٢) Eric, O. Ayisi. An Introduction to the Study of African Culture, 1.

(٣) Person and Community in African Traditional Religions, Africa Philosophy.

(٤) Adediran, A. A. (2013). "Social Studies Education", JRHSc, Vol. 3(9), 2.

(٥) ibid.

الثقافة إلى: أ- معرفية (معـارف ومعتقدات)، ب- وقيمية (أخـلاق، وعادات، وقوانين)، ويُطلق علـى هذين الصّنفَيْن «ثقافة غير مادية (non-material culture)، ج- وثقافة مادية، وتشـير إلى العناصر المرئية مـن المنتوج الثقافي: في المأكل، والمشـرب، والمسـكن، وغير ذلك من الفنون الشعبية[١].

تلك حقائق كان من الضروريّ الإشارة إليها قبل الخوض في طبيعة الثقافة الإفريقية.

٢- الثقافة الإفريقية:

بنـاءً على ما تقدّم من تعريفـات للثقافة، يمكن القول بسـهولة إنّ الثقافة الإفريقية هي: مجموع المعارف المادية والفكرية للشّعوب الإفريقية. ولكنّ الأمر ليس بتلك السّهولة الظّاهرة؛ لما تقدّمت الإشـارة إليه من عوائق وعقبات. إنّ تعريف الثقافة الإفريقية أمرٌ صعبٌ أشار إليه الباحث فيدلْ، وذكر أنّ ذلك راجعٌ إلى سـؤالٍ آخر قديم غير محسوم فيه: ما المراد بالوصـف «إفريقيا»؟ (What's Africa?)، فما دامت الإجابة عن هذا السُّؤال المطروح متنازعاً عليها؛ فإنّ ما ينبثق عنها من القضايا لا شكّ أنّها تبقى معلّقة.

على كلٍّ؛ فـإنّ بعض التعريفات يمكن إيرادها هنا على سبيل التقريب، وإغفال ما أطلقت عليه الباحثة أويتو «إفريقيا قمّة المتناقضات» (apex of contradictions)[٢]، التي لا تخضع لتعريف.

من تلك التّعريفات للثّقافة الإفريقية، أنّها: هي مظاهر الحيـاة المميّزة لإفريقيـا، وهي.. «نتاج الأيـدي والعقول الإفريقيـة» (Product of African hands and African mind)[٣]، وفـي تعريـفٍ آخـر أنّها: «مجموع القيـم الماديـة والرُّوحية للشُّـعوب الإفريقية في مسـار تاريخها، المحدّدة لما توصّلت إليه إفريقيا في تطوُّرها عبر التّاريخ»[٤]، وعند الباحث حاج أبا أنّ «الثقافة الإفريقية هي الوليدة في البيئة الإفريقيـة، وهي التي تُعبّر عن آراء أبناء هذه القارّة، وعن مشـاعرهم وانفعالاتهم»[٥]... الظّاهر هنا اتّفاق هذه التّعريفات على أن يكون المنتَجُ الثقافيُّ ناشئاً عن البيئة الإفريقية أصيلاً. وزادت الباحثة إدانغْ الحدّ الزّماني بقولها إنّ الثقافة الإفريقية هي: «مجموع القيم الأساسـية، والمعتقدات، والتصرُّفات والعادات التي وُجدت بإفريقيا قبل الحضـور الأوروبي، والتي ما زالـت موجودةً بها حتى الآن، خاصّةً في المجتمعات الرّيفية، وبعض المجتمعات الحضَرية شيئاً مّا»[٦].

أمّـا المثّقف الإفريقيُّ: فهو عند مُلاما: «الذي يحافظ على رؤيـة مجتمعه، ويجدّدها، ويوجّهها نحو طريقة مقبولة من الحياة، ويشكّلُ قيَمَه، وسـلوكاته، وتماسكه وهويّته»[٧]، وهنا إشـارةٌ إلى الصّبغة الوظيفية في الثقافة، وكونها قابلةً للتّشكُّل والتّجدُّد.

٣- العناصر المشكّلة للثقافة الإفريقية:

نظراً لتشعُّب الثقافات الإفريقية، وكون الثقافة نفسها شاملةً لجميع جوانب الحياة، وأنّها في تجدُّدٍ وتبدُّلٍ مستمرٍّ، فإنّ الباحثين في الفلسـفة قد استخلصوا عناصر أساسية تُعَدُّ مميّزات مشـتركة للثقافة الإفريقية، وهي تعمل بجلاءٍ أو بخفـاءٍ وبصمـت، في جميع مظاهر الحيـاة الإفريقية: المعرفيـة والقيمية والمادية على السـواء، وهي سـبعة: الحسُّ المجتمعي، حسُّ الوئام البشـري، قداسـة الحياة، الحسُّ الدّيني الرُّوحي، احترام السُّلطة وكبار السّن، العناية بالضّيف، الحسّ بقداسة الكلمة[٨].

---

(١) Ibid.

(٢) Aweto P. Ogho, "Identity and Change in African Culture", in: Theophilius Okere. African Philosophy and the Hermeneutics, 278.

(٣) Ogunmodede. (1990). What is African Culture? In: Adediran A. A. "social Studies", 72.

(٤) Idang, G. E. (2009). The Mind-Body Problems in African Culture, 142.

(٥) أثر الثقافة الإسلامية على الثقافة الإفريقية: دراسة حالة مردود الثقافة الإفريقية في غرب إفريقيا، ص٢١.

(٦) Idang, Gabriel A. (2015). "African Cultural Values", PHRONIMON, Vol. 15(2), 98.

(٧) Mlama, Penina Muhando. "Creating in Mother-Tongue: Challenges to the African Writer In: ALAssociation, Tongue and .18-Today", 9 Mother-Tongue, 15.

(٨) See: Emeka, Emeakaroha. (2002). "African

(أ) الحسُّ المجتمعي: ليس للفرد وجودٌ حقيقيٌّ في المجتمع الإفريقيّ إلا بانتمائه إلى مجموعة معيّنة، وبها تتحدّد هويّته، وأمنُه. وفي المثَل البانْتُوي الشّهير: «أنا موجود؛ لأنّنا موجودون، وما دمنا موجودين؛ فأنا موجود»، فالثقافة الإفريقية تُشجّع الفرد على- بل تفرض عليه- تكوين علاقات صداقة جماعية (فئات عُمرية). وفي رأي الباحثة أويتو (Aweto Pauline): أنّ «هذا المفهوم الجماعي (Collective Conception) له صفة المقدّس تقريباً عند الأفارقة»[١]، بخلاف الثقافة الغربية التي تنزع إلى تقليص العلاقات إلى ما بين فردين.

(ب) حسُّ الوئام البشري: أيّ علاقة حسن العشرة والجوار، سواء بين الأفراد أو بين المجموعات، وكلُّ فردٍ مسؤولٌ عن تحقيق صداقة وعلاقات إنسانية جيّدة مع الآخرين.

(ج) قداسة الحياة: يُعَدُّ المساس بالحياة كبيرةً في الثقافات الإفريقية، حتى في حال الاضطرار في الحرب، فإنّ المقاتلين لا يعودون إلى بيوتهم، ولا يمارسون أيّ علاقة مع زوجاتهم، إلاّ بعد طقوسٍ تطهيرية. وحتّى الأحياء غير البشرية، من حيوان ونبات، فإنّ قتلها أو إتلافها يتمُّ بعد طقوسٍ استئذانية من الأرواح الرّاعية لها والمكلّفة بها.

(د) الحسُّ الدّيني الرُّوحي: يؤكد رائد دراسة الأديان التقليدية بإفريقيا جونْ امْبيتي أنّ الدّين- لا غير- هو الذي يُلوّن جميع صُور التّعبير عند الإفريقيّين عن وجودهم وعلاقتهم مع عناصر الكون، وهذا ظاهرٌ في أساطيرهم، ومعتقداتهم، وعاداتهم ولغاتهم... فكلُّ عنصرٍ في الوجود، من أحياء وجماد، فيه روحٌ وقوّة في المنظور الإفريقي[٢]، لا وجود البتّة لفكرة «الإلحاد»، وتلك كلمة لا وجود لها في القاموس اللُّغويّ بإفريقيا.

(هـ) قداسة السُّلطة وكبار السّن: في المنظور الثقافي الإفريقي، تُضفى صبغة روحية على «الملك»، ويُعدُّ وسيطاً بين أرواح الأسلاف وبين المجتمع. ويُعرف ذلك في الدراسات الاجتماعية بـ Divine Kingship. ويُلحق بالملك كبار السّن؛ لأنّ المسنّ- يُحتَمَل ويجب أن يكون- مستودع الحكمة والعلم والخبرة، وفي كلّ مجموعةٍ حزمة من الأعراف والأصول والتّصرُّفات الإيجابية والمحظورة التي ينبغي مراعاتها بحضرة الملوك وكبار السّن[٣].

المتوقّع أنّ الثقافة الإفريقية سوف تشهد اضطراباتٍ جدُّ عنيفة نتيجةً لتراكمات العناصر الغريبة المدسوسة

(و) العناية بالضّيف: يحظى الضّيف بعنايةٍ فريدة في المجتمع الإفريقي، ويُعطى من الامتيازات ما لا يُعطى لأفراد المجموعة. وفي بعض المجموعات يُعَدُّ الضّيف صاحب الحقّ المطلق والصّواب في أيّ خلاف يقع بينه وبين أحد أفراد المجموعة دون مساءلة، بل إنّ المضيف المباشر للضّيف يتنازل عن إحدى زوجاته لضيفه في بعض المجموعات إذا جاء وحده؛ إذ المضيف هو المسؤول الأوّل عن جميع تصرُّفات ضيفه.

(ز) الحسُّ بقداسة الكلمة: تعتقد الثقافة الإفريقية بوجود تأثيرٍ سحريٍّ للكلمة المنطوقة في الموجودات، أي أنّ الكلمة قد تغيّر طبيعة الشّيء ومصيره إيجاباً أو سلباً؛ لذلك فإنّ الفرد يراعي ما يتفوّهُ به. في كثيرٍ من أساطير بدء الخلق الإفريقية قصصٌ عجائبية كثيرة عن كيفية حصول الإنسان على الكلام، ومن صُور التّعبير عن هذا الاعتقاد: الرُّقى والتّعاويذ، وأشعار الرّثاء، والحِكَم والأمثال التي تشيع على لسان الأفراد، وينصاع لمضمونها وأحكامها الأفرادُ كأنّها قوانين منزّلة، وهي كذلك عندهم؛ لأنّها من حكمة كبار السّن والأسلاف.

---

(١) Aweto P. Ogho, Op. Cit., 278.

(٢) Mbiti, J. S. (1975). African Religions and Philosophy, London, 262. "World and Ideology".

(٣) Conton, William. (1966). The African, London, 21.

تلك هي أهمُّ مميّزات الثقافة الإفريقية التي يؤمن رائد دراسات الأديان الإفريقية بيكو (Biko) أنّ أصولها لم تتأثّر بفعل الهجمة الإمبريالية[١]. وهي التي تؤلّف في مجموعها ما يُعرف بـ«Ubuntu"؛ أي: فلسفة الحياة الإفريقية.

المحور الثاني: الثقافة الإفريقية بين التأثر والتأثير:

من الحقائق المقرّرة في الشّأن الثّقافيّ: أنّه كلّما التقت ثقافتان أو أكثر؛ فلا بدّ أنْ يحدُث نوعٌ من التّأثُّر والتّأثير، والأخذ والعطاء بينهما، وتلك الظّاهرة تُعرف بـ«التثاقف» (Acculturaltion)، وهي ظاهرةٌ تحدث- عادةً- بصمت وهدوء؛ حيث يتمُّ في كلا الجانبَيْن (من الثّقافتَيْن المتلاقيتَيْن) هضم العناصر الثقافية من الطّرف الآخر، بطريقةٍ شبه لا شعورية، وفوق ذلك؛ يتمُّ هذا الهضم بطريقةٍ صحيةٍ تزيد من قوّة تكيُّف المجتمع ببيئته.

أمّا الحديث في السّياق الإفريقي؛ فإنّ ظاهرة التّثاقف فيها قد جاءت على غير العادة؛ مناقضةً لجميع ما ذُكر، وذلك منذ القرون الوسطى، ويتجلّى ذلك في أمرَيْن، هما:

- كون الحملة الاستعبادية (Slave Razzia) التي خضعت لها القارّة منذ القرن السّادس عشَرَ الميلادي، وامتدّت لأربعة قرون، قد أفرغت القارّة من الأجيال الشّابة، وبشكلٍ جماعيٍّ (ما بين ٤٠-٥٠ مليون نُقلوا إلى الشّاطئ الأطلسيّ الآخر)، وأحدثت قطيعةً حادّة واسعة بين الشّباب وبين كبار السّن، في مجتمع كان الاعتماد الكليُّ فيه على التّلقّي الشّفاهي، والممارسات اليومية للمفردات الثقافية.

- الهجمة الإمبريالية الأوروبية على القارّة، وهي هجمةٌ استَخدَمَتْ أوروبا فيها سلاحَين فتّاكَين: البارود، والمدرسة الغربية. وبتعبير الكاتب الرّوائي «شيخ حميدو كانْ»، عن المدرسة، فإنّها.. «تكتسب قوّتها بكونها سلاحاً أمضى من البارود نفسه؛ لأنّها تحقق احتلالاً مؤبّداً. إنّ البارود يُخضع الجسد لسيطرة «الرّجل الأبيض»، والمدرسة تسحر الرُّوح»[٢]، وهذا الموقف- وإن كان يعبّر بصدقٍ عن شراسة الهجمة على الثقافة الإفريقية- فمن الصّعب قبوله خاصّة إذا ما أخذنا في الحسبان تعريف «إدانْغْ»- السّابق- الذي يرى أنّ بعض مظاهر الثقافة الأصيلة ما زالت موجودة.

باختصار: إنّ الثقافة الإفريقية قد تعرّضت لظرفٍ تاريخيٍّ فريدٍ غير طبيعيٍّ من التّلاقي بين الثّقافات، أحدَثَ فيها شرخاً غائراً عميقاً يصعب رتقه. بل إنّ الباحث فيدلْ وأمثاله- في هذا المقام- يجيبون بجملةٍ قطعيةٍ عن السُّؤال الذي تمّ طرحه سابقاً: «ما المراد بإفريقيا؟»؛ حيث يؤكدون أنّ إفريقيا- بوصفها مفهوماً ثقافيّاً- لا وجود لها، أو أنّها قد غدتْ «قطعةً أثرية في المتحف»[٣].

ويمكن هنا تحديد أهمّ التّيارات التي أثّرت بعمقٍ في الماضي والحاضر، في الثقافة الإفريقية، كالمسيحية، والإسلام، ثم الحركات الفكرية الحديثة كالحركة الإفريقية العالمية (بان أفريكانزْمْ) وغيرها.

أولاً: أديان:

١- المسيحية أداةً في مشروع التثقيف الإمبريالي:

لا يكاد الباحثون يختلفون في كون المسيحية والإمبريالية الغربية، شيئاً واحداً[٤]، أو- كما يقال- وجهَيْن لعملة واحدة! أو بتعبير الرّوائي الكيني «واثيونْغو» الشّهير في وصف الكنيسة المسيحية، ودَوْر رجال الدّين في المشروع الإمبريالي: «ذهبنا إلى كنيستهم، كان موبيا لابساً جلبابا أبيض، فتح الكتاب المقدّس، قال: دعنا نجثو على رُكَبنا للصّلاة، دعنا نغمض عيوننا. أغمضنا عيوننا، لم يُغمض هو عيونه؛ لأنّه كان يقرأ في الكتاب، حين فتحنا عيوننا كانت أراضينا قد ضاعت!»[٥].

---

(١) Biko, Steve. (1971). "some African Cultural Concepts".

(٢) Kane, Sheikh Hamidou. (1961). L'Aventure Ambigue, Paris: Presence Africaine, 45-46.

(٣) Fiedle, Klaus, Christianity and African Culture, 165.

(٤) See: Peter, Beyer. (1994). Religion and Globalization, SAGE Publications, 537.

(٥) Ngugi, Wa Thiongo. (1986). A Grain of Wheat, Heinemann, 15.

لقد كان لوفود المسيحية مع الجبروت الإمبريالي في آنٍ واحد، وعرضها بوصفها واحدةً من صُوَر الحضارة والتقدُّم الأوروبي، الأثرُ المباشــرُ في التّعجيل بإحداث الصّراع بين المســيحية وبين الدّيانات ومظاهر الثقافة الإفريقية. وكما أوضحه الباحث امْبانْغا؛ فإنّ جميع الطوائف المسيحية (من أرثوذكس، وميثوديّين، وســبتيّين) تكاد تُجمع على استحالة كون الفرد مسيحيّاً وإفريقيّاً في الوقت نفسه؛ لذلك ترد عند جميع أولئك الكثير من الأوصاف السّــلبية لمظاهر الثقافة الإفريقية، مثل:

«demonic, paganism, heaten» (شــيطانية، وثنية، شريَّة...)، وأنّ مهمّتهم هي تخليص الأفارقة من تلك الحالة الشيطانية؛ لكنّ جميع تلك الطّوائف- بطُرقٍ ماكرة- قد وجدت وسائط من الانسجام والتّكيُّف مع هذا الإشكال.

من هنا؛ تعدُّ المســيحية محطّةً خطيرةً في «التثقيف» القســريّ الأحاديّ الاتجاه من الثقافة الأوروبية نحو الثقافة الإفريقية؛ لذلك علتْ أصواتُ الاســتنكار في الكنائس، منذ بدايات القرن العشرين، مِنْ لَدُن بعض الأفارقة الذين اعتنقوا المسيحية عن حسن نية؛ لكنّهم ســرعان ما اكتشفوا تآمر رجال الدّين المسيحيّين مع المستعمر على محاربة الثقافة الإفريقية، وشــهدت تلك الحقبة ولادة الكنائس التي تُعرف بالكنائس التقليدية الإفريقيــة (African Indigenous Church, AIC)، وفــي الوقــت الحاضر؛ فــإنّ حركات لا حصــر لها من الكنائــس تُعرف بالكنائس المســتحدَثة (Pentecostalist Churches)؛[1] قــد ظهرت ردّة فعل لخيبة أمل المسيحيّين من الكنيسة الأصولية.

وهذه التُّهمة ليســت جزافاً، وإنّما أكدتها الكنسية في غير ما مناسبة، وحتى اليوم فإنّ الكنيسة ما زالت متمسّكةً- علناً- بهذا الدّوْر التّجنيدي في المعســكر الإمبريالي، على ســبيل المثــال: ورد في ورقة عمــل (Instrumentum laboraris) لرجال الدّين المســيحيّين، نُشــرت بيوغندا بمناسبة زيارة البابا يوحنا الثّاني- فبراير ١٩٩٣م-، تعريف المثاقفة بأنّها: «إدماج العقيدة المسيحية ضمن ثقافةٍ، تكون هي عادةً خارج السّــياق اليهودي النّصراني الغربيّ، ومدى اســتجابة تلك الثقافة للرّسالة المســيحية»،[2] فالكنيسة تؤكّد هنــا أنّ مهمّتها هي نقل مفــردات الثقافة «اليهودية النصرانية الغربية» إلى الشّــعوب، وليس العكس، وتلك رؤيةٌ جدُّ استعلائية في مفهوم المثاقفة.

أمّا عن كون المسيحية تيّاراً من تيّارات التّأثير الثقافيّ بإفريقيا؛ فيتمظْهَرُ ذلك أكثر في المظاهر الاجتماعية؛ حيث إنّ مهمّة الكنسية كانت في تشكيل الأفارقة لتحقيق ذَوَبانهم (Assimilation) في المشــروع الإمبرياليّ، أمّا الجانب الرُّوحي المعنوي؛ فالتّأثير فيه ضعيف.

ويكفي هنا ســرد بعض الجوانب من نشــاط التثقيف المسيحي:

- منها مثــلاً: عقيدة «لعنــة حام»: التي تُعَــدُّ التُّربة الحاضنــة لأكذوبــة «النظريــة الحاميّــة» (Hamitic Theory)[3]، وفيها يزعم الباحثون الأوروبيُّون: أنّ أصل كلّ حضارةٍ بإفريقيا إنّما هو خارجي.

- ومنها: الأيقون الدّيني: كتصوير المســيح في صورة رجلٍ آريٍّ أشقر، بعيونٍ زرقاء.

- ومنها في النظام الاجتماعي: فرض الطّريقة الغربية في طقوس الزّواج، وفي الزّواج الأحاديّ (monogamy).

- وفــي النظام التعليمــي: التّزوير الفاحــش للتاريخ الإفريقيّ في الكتب التعليمية، وانتهاج سياسة غسيل الدماغ، ومسخ شخصية الأطفال بمدارس الإرساليّات الكنَسَية.

- ومنها في المجال السّياسي- وهذا أشنع وأشدُّ-: ضلوع الكنيســة في جريمة قنص «العبيد» وبيعهم عبر الأطلســي، والتّرويج لعقيدة الخنوع وقبول سيطرة الرّجل الأبيض، وندب الأفارقة إلى العمل من أجل الخلاص في الآخرة.

باختصار: فإنّ المســيحية، في عقيدتها، وممارساتها، وهياكلهــا، كما وفدت إلــى إفريقيا، هــي أداةٌ في خدمة الإمبريالية؛ من أجل تأكيد قبضة الإمبريالي على الإنســان الإفريقي، وطمس ثقافته.

---

(١) Manuh, T. (ed). (2014). Africa in Contemporary Perspective: A Textbook for Undergraduate, 177.

(٢) Mpanga, Denis. Towards a Catholic Theology, 70.

(٣) Ki-Zerbo, Joseph. (1981). Methodology and African Prehistory, UNESCO, 272.

٢- الإسلام وتأثيره الثقافي بإفريقيا:

يُعَدُّ الإسلام أعمق وأقوى التّيارات الوافدة إلى إفريقيا، وأكثرهـــا تغلغُلاً وتمازجاً بالثقافـــة الإفريقية. وهذه الحالة نتيجةٌ طبيعية لعاملَيْن مهمَّيْن، هما:

– قِدَم التلاقي الثقافي: مهما اختلفت الآراء حول فترة دخول الإســـلام بإفريقيا جنوب الصّحـــراء وتباينت؛ فإنّها تُجمـــع على أنّ هذا الدُّخول قد حدَث فـــي فترةٍ مبكّرة من تاريخ الإســـلام، وهذا الوجود الطّويل للإســـلام بالقارّة قد أدّى به إلى الخـــروج عن الصّبغة الوافدية، إلى كونه جزءاً- لا يتجزّأ- من النّســـيج الثقافيّ الإفريقي، وأصبح مســـلمو إفريقيا- منذ القرون الوســـطى- أعضـــاء منتجين للثقافة الإسلامية، وشرايين مغذّية للجسم الإسلامي.

– سلمية التلاقي: كان اللّقاء بين الإسلام وبين الثقافة الإفريقية لقاءً ســـلميًّا بامتياز، فقد ظهر الإسلام في سياقٍ تاريخيٍّ من التلاقي المنســـاب المتناغـــم بين العرب وبين الأفارقة؛ فجاء الإسلام، ولم يُزعج هذه العلاقة، وإنّما سعى فـــي دعمها وتمتين أواصرها بين الثّقافتَيْن: بعقائده، ومُثُله، ورؤيته الكلية للكون والإله والحيـــاة التي تتقارب مع الرُّؤية الإفريقية للعالَم.

بهذين العاملَيْن؛ فإنّ الإســـلام يختلف اختلافاً جذريّاً عكســـيّاً عن المسيحية التي وفدت بشـــكلٍ مفاجئٍ مباغتٍ، وفي سياقٍ استعماريٍّ عسكريٍّ شديد العنف.

أمّا عن مظاهر التّأثير الإسلاميّ في الثقافة الإفريقية؛ فهي شاملةٌ لا تكاد تقبل أن تُحصَر في دراسة مختصرة كحال الدراســـة الحالية، فهي موجودةٌ بعمق: في المجال الفلسفي الدّيني، والأنظمة السّياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، في القيم والمُثل الإنســـانية، وفي العادات والتّقاليد. كما نجد التّأثير بارزاً في اللُّغة وفنون الأدب من شـــعرٍ وأغانٍ وحِكَم وأمثـــال، وفي فنون الأزياء والملابس، والعمارة والبناء، وفي الطّب الشّعبي، وسائر الفنون الشّعبية.

ومـــن الطّريـــف أنّ الجـــدل كان محتدمـــاً بين بعض الباحثين، في بدايات القرن الحادي والعشـــرين، حول مدى تأثير الإسلام في إفريقيا.

وكان من المؤيّدين للتأثير[١]:

E. Blyden, Joseph Thompson, Smith Borsworth, Elisie Reclus, Dubois.

ومن النافين للتّأثير:

renan, Noble, Blerzey, Church, Freeman.

غيـــر أنّ الزمن قد كان خير فيصلٍ بين الفريقَيْن، فإذا الدّراســـات اليوم لم تَعُد تُعنى بإثبات التأثير، وإنّما اتّجهت نحو رصد التّأثيرات الإســـلامية في مظاهر ثقافية محدّدة دقيقة، كما في دراســـات: برافمان[٢]، والباحث في الأثريّات إنثول[٣]، في التأثير الإسلاميّ في الفنّ المعماريّ الإفريقي، وفنّ الأقنعة، والباحث تاماري.

وعُنيـــت دراســـاتٌ أخـــرى برصد التأثير الإســـلاميّ بيـــن مجموعاتٍ إثنية معيّنـــة لم يكن يُظـــنُّ أنّ لها علاقة بالإسلام، مثل الدراسات عن الشُّـــعوب بالجنوب الإفريقيّ (مجموعات ياوٌ مثلاً). كما عُنيت دراســـاتٌ كثيرة برصد ما قدّمه المســـلمون من إســـهام حضاريٍّ بإفريقيا، من أولئك المؤرّخ هيســـكتْ، صاحب الدّراســـات الرّائدة عن الإسلام بنيجيريا، منها: «سيف الحق»[٤]، ومورايْ لاسْت عن الخلافة الصُّكتية[٥]، وج. هونْويك، وهو رائد التّاريخ الصُّونغائي، ومن طلائع دراســـاته كتابُهُ: «حركات الجهاد في القرن التّاســـع الميلاديّ»[٦]، وكوبانْسْ[٧]، ونحيميا ليفتصيون[٨]، وسواريسْ (Benjamin Soares)، وأمثالهم...

---

(١) Ellis, G. W. “Islam as a Factor in West African Culture”, J. of Race Dev. Vol.2 (2), 107.

(٢) Bravman, R. A. (1974). Islam and tribal Arts in West Africa.

(٣) Insol, T. Archeology of Islam in Africa.

(٤) Hiskett, M. (1973). The sword of truth. New York: Oxford Unv. Press, 6.

(٥) Last, Murray. (1970). “Aspects of Administration -and Dissent in Hausaland”. IAI. Vol. 40 (4), 345 357.

(٦) Hunwick, J. (1967). The Nineteenth Century Jihads: a Thousand Years of West A History.

(٧) Copans, Jean. (1980). Les Marabouts de l’arachide, Paris: L’Harmattan.

(٨) Levtzion, Nehemia. (1973). Ancient Ghana and Mali, Methuen.

ثانياً: تيارات حديثة مؤثرة في الثقافة الإفريقية:

يتميّز موضوع الثقافة الإفريقية بكثرة التّيارات الحديثة المؤثّـرة فيها، وتعدُّد حركاتها وروّادهـا؛ ممّا يجعل البحث في هذا المجال عملية صعبة، فمن أبرز الحركات الثقافية: حركة البـان أفريكانـزم (Pan-Africanism)، وحركة الزُّنوجة (Negritude)، وحركـة كاميتْ (Kamitism)، والأفـرو- بوليتانـزم (Afropolitanism)، والإثيوبيانزم (Ethiopianism)، والأفرو-مركزيـة (Afro-Centrism)، وأفريكولوجيـا (Africology)، وحركـة النّسوية الإفريقية (African Womanism)...

كذلـك؛ فإنّ قائمة روّاد الحركة الثقافية طويلة، أمثال: كُوامـي انْكروما، وسـيكو توري، وجومـو كينْياتا، وباتريسْ لومُومْبا، ويوليوسْ نيريري، وجميع أولئك كانوا زعماء الدُّول الإفريقية الحديثة.

ومـن المعاصرين الأدبـاء والمفكّرين: والْـدَا حَيْوَاتْ (إثيوبيا)، وكوامي غيكي، وكواسـي وريدُو (غانا)، ومورديمْبي (كونغو).

وباسـتحضار كبار المفكّرين، وروّاد الفكر الثقافيّ في أمريكا وفي بلدان الشّتات الكاريبية؛ فإنّ القائمة تطول أكثر؛ لذلك يتمُّ الاكتفـاء هنا بإيراد أربعةٍ من التّيارات والحركات التي يغلب الظنُّ بأنّها أهمُّ الحركات التي أثّرتْ في السّـياق الثقافي المعاصر بإفريقيا، وهي الحركات الأربع الأولى في الفقرة السّابقة.

١- حركة بان أفريكانزم:

يرى كثيرٌ من الباحثين أنّ حركة بان أفريكانزم تأتي في المرتبـة الثّانية من الأهمية، بعد حركات التّحرُّر الإفريقية، وهي حركة ثقافية فكرية سياسـية، تُعزى إلى المفكّر دو بُوا (W.E.B. DuBois, d.)، الذي نظّر لها وروّجها، وهدفها الرّبط بين الأفارقة، خاصّةً في أمريكا، وبين أصولهم بالقارّة الأمّ.

كان أوّل تجمُّـع عالمـيٍّ لها عـام (١٩٠٠م) بإنجلترا، وكان أهمُّ أهدافها عند إنشـائها اسـتقطاب الأفارقة حول العالَم؛ للكفاح من أجل الحرية، وإزالة الكولونيالية عن الدول المسـتعمَرة، وبهذا فإنّ حركة بان أفريكانزم تعدُّ في الواقع الحركة الأمّ التي ولّدت جميع الحركات والتّيارات التي تسعى لإذكاء الوعي الثقافي، والبحث عن الهوية والذّات الإفريقية.

من زعمـاء الحركة البان أفريكانيـة: كوامي انْكروما، وجمال عبدالنّاصر، والحاج أحمد سيكو توري، والحاج مالك شباز (مالكولم إكس).

ولحركة بان أفريكانزم اتحادٌ عالميٌّ للكُتّاب والمفكّرين، تأسّـس بأكرا غانا (١٩٨٩م)، ورسـالته: «تقويـة الرّوابط الثقافية والاقتصادية بين شـعوب القارّة الإفريقية؛ انطلاقاً من تراثها الثقافي والسّياسـي والاقتصـاديّ المتعدّد»[١]، كمـا أنّ لها جناحاً شـبابيّاً (PYUC) يعمل تحت الاتّحاد الإفريقي.

ومن إنجازات هذه الحركـة: نجاحها في إذكاء الوعي الوحدَوي بين الأفارقة في كلّ مكان، وفي تأسـيس منظّمة الوحـدة الإفريقية (١٩٦٣م). وقد ألهَمَت هذه الحركة كثيراً من القادة داخـل القارّة، وفي أمريكا تحديداً، أمثال: مولانا كارينغـا (Maulana Karenga)، وهـو صاحب القواعد السّبع بالسواحيلية: «Umoja, Kujichgulia, Ujima, ujammaa, Nia, Kuumba, Imani» (وحـدة، عزم، عمل جماعي، نظام اقتصـادي جماعي، نية صادقة، إبـداع، إيمان). وكانت مهمّته في صـرف الأفارقة بأمريكا عن أعمال الشّـغَب والإجرام إلى العمل ضمن شعور موحّد بوحدة ثقافية فيمـا بينهم، سـمّاها (Black Cultural Nationalism)[٢].

تجدر الإشـارة إلى: أنّ هذه الحركـة على الرّغم من تلاشـيها واضمحلالها فما زالت مؤثّرة- بصمت- ولهـا دعاةٌ ومتحمّسـون. وفي تقييم لهـا- في حالتها الرّاهنة- يصرّح الباحث ميلدْوود بأنّ مشـكلتها فقدان القيادة الدّينامية، يقول: «إنّ بان أفريكانزمْ على الطريق الصحيح، ولكنهـا بحاجة إلى قيادة قويـة، وإلى رؤية اقتصادية، وفكرية جديدة، سواءٌ داخل القارّة وخارجها. إنّنـا بحاجة إلى أصـواتٍ من مثل صوت: غاريسـونْ،

---

(١) Panafrican Writers Association (PaWA), .panafricanwritersassociation.org

(٢) Warren N. (1990). Panafricanism from Baraka to-Karenga, J. of Negro History, Vol.75, (1-2), .24

ودوغـــلاسْ، وســـومرْ، ووايْتيـــارْ، ودُو بُـــوَا، وغارفي، وانْكروما، ومارتنْ ل. كينغْ»[١].

أفارقة الشتات (Diasporic African):

تقوم المجموعـــات ذات الأصول الإفريقية حول العالَم بإســـهامات وتأثيـــرات ملحوظة فـــي الثقافـــة الإفريقية، خاصّـــةً في بلاد الكاريبـــيّ. ويذهب الباحثـــون المؤرّخون والأنثروبولوجيُّـــون إلى أنّ الهجرة الإفريقيـــة إلى القارّات الأخرى تمتدُّ لحوالي سبعين ألف عام ماض؛ ممّا يعني تجذُّر العلاقات الثقافية بيـــن الأفارقة وثقافات القارّات الأخرى، خصوصـــاً أنّ التّلاقي في تلك الحقبة التّاريخية الغارقة في القِدَم كان تلاقياً إيجابيّاً ســـلميّاً طوْعيّـــاً. أمّا في العصور الوســـطى، ابتداءً من القرن السّـــادس عشَر الميلاديّ، فإنّ الهجرات الإفريقية قد شهدت تحوُّلاً جذريّاً في الكَمّ والنّوع، متمثّلةً فيما يُســـمّى بـ«تجارة الرّقيـــق» (Slave Trade)، وهنا يُستخدم مصطلح «شتات» (Diaspora) في الدراسات الاجتماعية؛ للإشـــارة إلى وجود الأفارقة في مختلف أرجاء العالم خارج القارّة الإفريقيـــة، وبخاصّة الأمريكتَان «العالم الجديد».

في هذا السّياق؛ قسّم الباحث ماننغ (P. Manning) مراحل الوجـــود الإفريقي بكثافةٍ خارج القارة إلى خمســـة مراحل أساســـية، هـــي: مرحلة الوفـــود (١٦٠٠م)، مرحلة الصّراع مـــن أجل البقـــاء (١٦٠٠-١٨٠٠م)، مرحلة التّحرُّر (١٨٠٠-١٩٠٠م)، مرحلة المواطنة (١٩٠٠-١٩٦٠م)، مرحلة المساواة (١٩٦٠-٢٠٠٠م)[٢].

هنـــا؛ يتحـــدّث الباحثون عـــن «African Matrix» (الأصل الثقافي الإفريقي)؛ للكشـــف عن الأصول الثقافية الإفريقية لمظاهر ثقافة أفارقة الشّتات: في اللُّغة، والدّين، والأغذية، والملبوســـات، وفنّ العمارة، والرّقص، وغيرها[٣]، فجميع تلك المظاهر تضاف إلى مجموع الثقافة الإفريقية.

٢- حركة الزّنوجة (Negritude):

«نيغريتـــود»: حركـــةٌ ثقافية أدبية للتّعبيـــر عن الذّات الإفريقية، ورفـــض الاحتواء الثّقافي الأوروبيّ (الفرنســـي خاصّة). ظهرت بعد الحرب العالميـــة الثّانية بباريس على يد الثُّلاثي: ليـــونْ داماسْ (غويانا الفرنســـية، ت١٩٧٨م)، وليوبولد سيدارْ سنغور (ت٢٠٠١م)، وإيمي سيزار (مارتنيك، ت٢٠٠٨م)، وإلى هذا الأخير يُعزى وضع مصطلح «نيغريتود»، وهم جميعاً شعراء مرموقون، هذا بالإضافة إلى كُتّاب أفارقة مرموقين.

وكان منبر هـــذه الحركة مجلة (الحضـــور الإفريقي) (Presence Africaine)، التي أسّسها الشّاعر علي ديوبْ (Alioune Diop)، ومجلّة (الطالب الأسْوَد)، ونشطت في الترويج للفكر الزنجي ومحاورة الفلســـفة والثقافة الغربية، وتأكيد الصبغة العالمية في الثقافـــة الإفريقية، وأنّها أكثر انسجاماً وأصالةً من الثقافة الغربية.

وعلى الرّغم من احتفـــال روّاد حركة الزُّنوجة بالرفض القاطع لسياســـة الاحتواء الثّقافي الغربـــي؛ فإنّ كثيراً من الشُّـــكوك والاتّهامات قد نالـــت روّاد« نيغريتودْ»، خاصّةً أنّ مواقف بعضهم كانت تدعو لكثيرٍ من الرّيبة، منها مثلاً: قبول سنغور عضوية أكاديمية اللُّغة الفرنسية التي يُقلّدُ أصحابها ســـيفاً، ويُضفى عليهم لقب «فارس»، ويؤدُّون قَسَماً بحماية اللُّغة الفرنســـية بما أُوتوا من قوّة، وزاد ســـنغور الطّين بلّة باشـــتراكه في تأسيس منظّمة الفرنكوفونية ورئاستها! وهنا حُقّ للفيلســـوف الكونغولي موديمْبـــي أنْ يصرّح بأنّ حركة نيغريتود «صناعة فرنســـية»[٤]، وتحامل عليهم بشدّة المفكّر الثّائر فرانْس فانونْ (Franz Fanon, d ١٩٦١)[٥]. كذلك كان الشّـــاعر وولي شـــوينكا، الحائز علـــى جائزة نوبل في الآداب، مـــن أكبر المتحاملين على هذه الحركة، ومن أقواله السّـــائرة في حقّها: «إنّ النّمر لا يُثرثر عـــن نُموريّته، وإنّما

(١) Mildwoook, Robinson A., The Quest for a (Theological Connection, (No.29).

(٢) Manning, Patrick, The African Diaspora: A History Through Culture, 2.

(٣) Davies, Carole E. B., (ed), Encyclopedia of the African Diaspora: origins, Experiences, and Culture, 53.

(٤) V. W. Mudimbe. (1988). The invention of Africa, 86.

(٥) P. C. Emmer, et al. (1999). General History of the Caribbean, UNESCO, 245.

يَثب على الفريسة»[1]؛ إشارةً إلى إيغال أولئك في الرُّؤية الرُّومانسية عن إفريقيا.

وقبل كلّ ذلك؛ فإنّ طروحات الفكر النّيغرتودي قد أساءت إلى إفريقيا، وصدّقت الكثير من اتّهامات «الرّجل الأبيض» لإفريقيا؛ حيث إنّهم عرضوا إفريقيا بصورةٍ بدائية، واعترفوا لأوروبا بالعلم والتّنوير والتّقدُّم التكنولوجي، وقد عيبَ كثيراً على سيزارْ مخاطبته للزُّنوج في ديوانه «Cahier d'un retour a la terre natale» (مذكّرة عودة إلى مسقط الرّأس) قوله: «إلى أولئك الذين لم يكتشفوا شيئاً أبداً.. إلى الذين لم يخترعوا شيئاً قطُّ»، وهنا قامت قيامة أصحاب حركة «المركزية الإفريقية» (Afrocentrism)؛ إذْ لوّحوا في وجهه بعشرات المخترعين والعباقرة في تاريخ الزُّنوج، بل يؤكدون أنّ الحضارة الهيلينية (الغربية) مسروقةٌ برمّتها من إفريقيا.

على كلٍّ؛ فإنّ حركة نيغروتود قد كان لها تأثيرٌ مميّز في الجيل الأوّل للأدباء والمثّقفين النّاطقين بالفرنكوفونية، سواءً داخل القارّة، أم خارجها في دُول الكاريبي، ذلك لظهور هذه الحركة في فترةٍ حرجةٍ جدٍّ مشحونة بالاحتقان الثقافيّ بين فرنسا ومستعمراتها، وبحث الطّبقة المثقّفة الجديدة عن وسيلةٍ وعن منبر للتّنفيس عن هذا الاحتقان النفسي، ولا شكّ بأنّ غالبيّتهم كانوا صادقين للغاية في انخراطهم مع حركة النيغروتود، من الأدباء والرّوائيّين الذين يوصفون بكُتّاب الرّفض، وكثيرٌ منهم قد لاقوا الأمرّين بسبب مواقفهم من سجنٍ ونفي... هذا، وقد تلاشتْ فكرة الزُّنوجة في وجه حركات إزالةً الكولونيالية في حقبة السّبعينيّات من القرن الماضي[2].

٣- حركة كاميتْ (Mouvement Kamit/Kemit)

يؤكد أصحاب هذه الحركة أنّ «كاميتْ» هو الاسم الأصل لحضارة الفراعنة في مصر القديمة، ومعناه: أرض السُّود. أمّا (Egypt) فاستخدامٌ منحرفٌ عن هذا الأصل، ينبغي طرحه، والعمل بالأصل. كذلك؛ فإنّ «إفريقيا» تحريفٌ للأصل «أفورَاكا» الفرعوني.

على إفريقيا العمل من أجل الإمساك بالزّمام الثقافيّ فيها، والتحكُّم- ما أمكن- في تحديد مسار «الماكينة» الثقافية نحو الوجهة الصحيحة للمستقبل الإفريقي

تتميّز هذه الحركة بالعمق الفلسفيّ والفكريّ؛ إذ إنّ جميع روادها هم من الأكاديميّين والباحثين البارزين بإفريقيا.

برزت حركة كاميتْ منذ حوالي ثلاثة عقود؛ نتيجةً طبيعية للتّحوُّل الجذريّ الذي أحدثَهُ عالم المصريّات «شيخ أنتا ديوبْ» في الدراسات التاريخية الإفريقية، وذلك بسلسلة كُتُبه التي غدَتْ أشهَرَ الكُتُب في السّاحة العلمية في الدّراسات الإفريقية، مثل كتابه: «الشُّعوب الزّنجية وثقافتها» (Nations Negres et Cultures)، وسعى من خلال تلك السّلسلة لإثبات أنّ حضارة مصر القديمة هي حضارة زنجية أصيلة، وأنّ إفريقيا هي مهد الحضارات، بل إنّ أصل الجنس الأبيض أسوَد، وكشف عن الكثير من أوجُه التّزوير المتعمّد في التّاريخ من لدُن الباحثين الغربيّين.

ويمكن تلخيص أهمّ ركائز هذه الحركة في عدّة محاور:

• تمجيد الحضارة الفرعونية؛ بوصفها أصل الحضارات البشرية المعروفة حتى الآن.

• ردُّ أصول الأديان الكبرى إلى الأصل الفرعوني، والزّعم بأنّ الكتب المقدّسة إنّما هي مقتبسة من كتاب الأموات الفرعوني.

• تمجيد الشخصيّات القيادية والعلمية في التاريخ الإفريقيّ والمعاصرين؛ بصرف النّظر عن معتقداتهم وأديانهم، ومن الشخصيّات التاريخية المسلمة الممجّدة عندهم: القاضي أحمد بابا التّمبكتي (ت١٦٢٧م)، والإمام ساموري توري (ت١٩٠٠م)، وأميرة والو في السّنغال الحالية Ndete Yalla، وشيخ أحمد توري (ت١٩٨١م)[3].

(١) Soyinka, Wole. (1999). The Burden of Memory, .141

(٢) Irele, Abiola & Biodun J. (2010). The Oxford .Dictionary of..., 390

(٣) See: www.culture-kamite.com

• الدّعوة إلى العودة إلى القيم الأخلاقية والثقافية الإفريقية، ونبذ كلّ ما هو أجنبيٌّ دخيل، ولكنّهم ينفون- قطعاً- كون هذه الدّعوة دعوةً عنصرية، وقطيعةً مع الآخرين.

• دعوة الجيل الناشئ إلى التميُّز في جميع الميادين العلمية والفكرية والأدبية.

من مشاهير الأكاديميّين والكُتّاب في مجال التّنظير والتّرويج للفكر الكاميتي:

Aboubacry Moussa Lam, Babacar Mbaye Diop, Babacar Sall, Bernard Zongo, Bwemba Bong, Cheih M›backe Diop, Cheikh Moctar Ba, Doudou Dieng, Doumbi-Fakoly, Jean Paul Mbelek, Momar Mbaye, Theophile Obenga...

ويظهر هنا غلبة الكُتّاب السّنغاليّين (الاسم الأول، و٢، و٣، ٦، ٧، ٨، ١١)، ولعلّ السّبب المباشر في ذلك كون «شيخ أنْتا ديوب» (الأب الفكريّ لهذه الحركة) سنغاليّ الجنسية، وبعض المذكورين هم من تلامذته المباشرين. ويمثّل البروفيسور «بويمبا بونغْ»- الآن- الأب والأستاذ الملهم لهذه الحركة؛ لعلمه وكِبَر سنّه، ومن أشهَر كُتُبه: «حين كان الإفريقيُّ الذّهبَ الأسوَدَ لأوروبا»، ويمثّل دراسة مفصلية في مجال دراسات ما يُسمّى بـ«تجارة الرّقيق» عبر الأطلسيّ؛ حيث ردّ بشدّة ما راج في هذا المجال من معلومات تاريخية، فهو في المقام الأوّل يرفض مصطلح «تجارة»، ويؤكد أنّ ما حصل لم يكن تجارة؛ وإنّما قَنْصاً للبشر، فالتّجارة من أبسط شروطها: وجود طرفَين متراضِيَيْن. ويدلُّ العنوان الفرعيُّ للكتاب على لهجة الرّفض العالية فيه؛ إذ ورد: «تفكيك للأكاذيب والتاريخ المزوّر عن قناصة العبيد عبر الأطلسيّ»[١].

٤- حركة أو مفهوم (Afropolitan):

يشير مصطلح «أفروبوليتانْ»- باختصار- إلى أفارقة العالَم، أيْ إلى الأفارقة حول العالم بوصفهم أفارقة، وليس بوصفهم مواطنين في الدّولة التي استقرُّوا بها، وحازوا جنسيّاتها بشكلٍ قانوني. ظهر هذا المصطلح وشاع إثر نشر مقال للباحثة من غانا، سيلاسي، بعنوان «Taiye Selasi: Bye-Bye Babar, ٢٠٠٥»، وتعبّر الأفرو-بوليتانْ عن ظهور تأثير ثقافيٍّ جديد، بأمريكا خاصّة، على أيدي موجةٍ جديدةٍ من الشّباب المبدعين المهاجرين. وبتعبير سيلاسي نفسها؛ فإنّ هذه المجموعة من الشّباب تتميّز بتنوُّعاتها الإثنية، وتعدُّدها اللُّغويّ، وتميُّزها الأكاديمي، وأيضاً ببروزها الفنيّ في الميادين المختلفة.. «إنّنا-معشر الأفروبوليتانْ- أحدَث المهاجرين الأفارقة، سهلٌ تمييزنا.. بعاداتنا الإفريقية، ونجاحنا الأكاديمي، البعض منّا قد اختلط بجنسيّاتٍ أخرى: غانية-كندية، نيجيرية-سويسرية.. معظمنا متعدّدو اللُّغات، فبالإضافة إلى اللُّغة الإنجليزية، أو لغة أو لغتَين من اللُّغات الرُّومانية، فإنّنا نفهم بعض اللُّغات المحلية، وبعض اللّهجات الحضَرية بإفريقيا. يوجد على الأقلّ موضعٌ بالقارّة الإفريقية الذي نربط به شعورنا بالهوية، سواءٌ أكان ذلك دولة وطنية (أثيوبيا مثلاً)، أم مدينة (إبادان مثلاً)، أم مطبخ خالة... إنّنا أفروبوليتانْ: لسنا مواطني العالم، وإنّما أفارقة العالَم»[٢].

ومن المنظّرين لهذا المفهوم: الفيلسوف الكاميروني امْبيمْبي (Achille Mbembe)، الذي يرى أنّ مفهوم الأفروبوليتان يعني: «طريقة حياة في العالم، ترفض أساساً أيّ شكلٍ من الهوية الضحية؛ ولا يعني ذلك أنّها غير واعية بصُوَر الظُّلم والعنف التي تمارَسُ ضدّ القارّة وشعوبها عبر النّظام العالمي»[٣].

ومن مشاهير الكُتّاب المهجريّين الشّباب المعبّرين عن ثقافة أفروبوليتانْ:

انْغوزي (Chimammanda Ngozi)، وبولاوايو (NoViolet Bulawayo)، وكولي (Teju Cole)، وميْنغيسو (Dinaw Mengestu)[٤].

تجدر الإشارة إلى وجود اعتراضٍ على مفهوم

(١) Bong, Bwemba. (2013). Quand L'Africain etait l'Or Noire de L'Europe , Dagan Ed.

(٢) Betiel, Washihun. (2016). "Afropolitan Writing", in: Straub, Julia (ed). Handbook of Transatlantic North American Studies 392.

(٣) Ndaba, Obadias, "Afropolitanism and its discontents", 368. In: Dorothy Hodgson, Judith Byfield (ed), Global Africa: Into the Twenty-First Century.

(٤) Betiel, Washihun, Op. Cit.

«أفروبوليتانْ» مــن لدُنْ كُتّاب ومثقّفين أفارقة، منهم الكاتب الكيني وايْنايْنا (K. B. Wainaina)، الذي رفض المصطلح، وآثر مصطلح «بان أفريكانْ»[١]، والجنوب الإفريقي أموتوسو (Yewande omotoso)، ومــن مآخذهــم علــى هــذا المصطلح أنّــه إقصائيٌّ تمييزي، في حيــن أنّنا ندعو إلى التّمازج، فإذا كان الأفارقة يميّزون أنفسهم بهذا المصطلح، فهل يحقُّ للأوروبيّين أن ينادوا بـ«أوروبوليتانْ» وللآسـيويّين «آســيابوليتانْ»؟ لماذا لا يرضى الأفارقة أن يكونوا عالَميّين فحسب؛ أي «كوسموبوليتانْ»؟

ويظهر هنا اختلافُ مفهــوم «أفروبوليتان» عن مفهوم «البان أفريــكان»، حيث إنّ الأوّل ينطلق عــن عدم ارتباط الإفريقــي بالأرض الإفريقية وحدهــا، والآخر يحصر تلك الرُّؤيــة في الأرض الإفريقية بوصفهــا منطلقاً للأفريقانية (Africanness). كما أنّ الأوّل يؤمن بأنّ عصر الأصالة قد ولّى بلا رجعة، بينما يصارع الآخر (البان أفريكان) من أجل استعادة الأصالة الإفريقية، أو- على الأقلّ- حماية ما تبقّى منهــا، وجعلها رابطةً لجميع الأفارقة حــول العالَم[٢]. وكما يقول امْبيمْبي (منظّــر الفكر الأفروبوليتاني) فإنّها فكرةٌ ما وراء البان-أفريكانية «beyond Pan-Africanism»[٣]، وأوسَعُ منها.

مــن المآخــذ أيضاً: أنّ هــذا المفهوم قد تــمّ تقليصه وتضييقه في جانب الأزياء والفنون فحســب، وأوشك أن يفلت من الجانب الأكاديميّ الفكريّ إلى كونه رمزاً تجاريّاً تســويقيّاً، يُساء اســتغلالُهُ لتمرير أشــياء لا تَمُتُّ إلى الثقافة الإفريقية بصلة، أي أنّ الثقافة الشّعبية الإعلامية الضّحلة قد غلبت على هذا المفهوم، ويمثّل هنا بمجلة الأفروبوليتان (Afropolitan Magazine)، وغيرهــا من المعارض حــول العالَم[٤]، ويتّهم بعض الباحثين الغرب بإحداث هذا التّحوُّل المتعمّد في مسار هذه الحركة الفلسفية الثقافية؛ رغبةً في وأدها[٥].

هــذا، وعلى الرُّغم ممّا يمكن تســجيله مــن أخذ وردٍّ حول مفهوم الأفروبوليتانْ؛ فإنّ لهذه الحركة رواجاً متصاعداً واســعاً بأمريكا خاصّة؛ حيث إنّها تمثّــل تعبيراً جديداً عن الهويــة والثقافة الإفريقيــة لدى الجيل النّاشــئ من أبناء المهاجريــن الذين ابتعد معظمُهُمْ كثيــراً عن موارد الثقافة الإفريقية، وهم في الوقت نفســه يتوقــون إلى التّعبير عن هويّاتهــم والتّلويح بأصولهم، والتّميُّز عن المجتمع الأمريكيّ أو الغربــيّ؛ فيتعلّمون شــيئاً من اللُّغــات الإفريقية، وربّما يضيفون بعض الأســماء «الغريبة» على أسمائهم، ويرتدون بعض الأزياء المميّزة... من هنا تكتســب حركة أفروبوليتانْ قاعدتها وأهمّيتها.

المحور الثالث: منصّات التأثير في الثقافة الإفريقية:

تقــوم أجهزةٌ كثيــرة بالتأثير المباشــر فــي الثقافة الإفريقيــة، إيجابــاً أو ســلباً، منهــا: العَوْلَمــة، ومنظّمة الفرنكوفونية، ووسائل الإعلام الحديثة، وغيرها.

١- العَوْلمة:

لا أحد يُنكر سُــنّة الأخذ والعطاء بين البشــر، أفراداً ومجتمعات؛ ما دام الإنســان اجتماعيّــاً بطبيعته، غير أنّ مشروع العَوْلمة- في حقيقته- هو التّدخل غير الحيادي في هذه السُّنة البشرية، والتّنكُّر لقانون التّعلُّم الطبيعي للثقافة، أي كون الثقافة أمراً نتعلّمه من بعضنا البعض بشكلٍ شبه لا شعوريٍّ- كما سبق تقريره أوّلَ هذه الورقة-.

وإذا كان بعــض الباحثين يذهبون إلى تقســيم الخبرة الإفريقية بالعَوْلمة إلى ثلاث فترات، هي: (١٨٧٠-١٩١٤م)، (١٩٤٥-١٩٨٠م)، (١٩٨٠- حتــى الآن)، فإنّ آخرين يرون أنّ خبرة إفريقيا بالعَوْلمة قديمةٌ منذ الفترات المبكّرة لنشــاط التّجــارة عبر الصّحراء الكبرى، وأنّها شــهدت فترةً عنيفةً بانخراط أوروبا في هذا النّشــاط مع «تجــارة» الرّقيق[٦]،

(١) IU Press Journals, new African Fiction: Transition: The magazine of Africa and the Diaspora,

(٢) Afolayan, A. & Falola, T., (2017). The Palgrave handbook of African philosophy, 394.

(٣) Mbembe, A. & Sarah B. (2016). "Pan-African Legacies, Afropolitan Futures", Transition, No.120.

(٤) Betiel, Washihun, Op. Cit., 392.

(٥) Afolayan, A. & Falola, T. The Palgrave Handbook of Af...., 395.

(٦) Obioha, U. Zuoka P. (2010). « Globalization and the future of African Culture », Philosophical

فالعَوْلمة الطّبيعية ليست غريبةً على إفريقيا.

علــى كلٍّ؛ فإنّ العَوْلمة التي يُروّج لها بالسُّــوق الحرّة، وتدعمها جبروت تكنولوجيا الاتصــال، تمثّل تحدّياً خطيراً لإفريقيا ولســائر الدول في علاقاتها بالمستفيدين من هذا المشــروع: أمريــكا وأوروبا؛ حيث تقوم الــدول «العظمى» بفرض إمبريالية ثقافية واضحة على الدول الضعيفة، وهنا يمكن تعداد الكثير من المراكز والمؤسّسات الغربية المعنية عنايةً مباشرةً ومركّزة على التثقيف، منها مثلاً:

Alliance Francaise, The American Cultural Centers, The British Council, etc..

لكــن يزداد التحدّي والخطورة في السّــياق الإفريقيّ؛ لأنّ العولَمــة بالإضافة إلى ما يُصاحبهــا من ترويج أحاديّ الاتّجاه في جميع المجالات؛ فإنّ أمريكا خاصّةً تســعى إلى تسريع وتيرة العولمة ومفعولها على إفريقيا بالإملاء المباشر لرؤى العَوْلَمة ومشــروعاتها، أي أنّها تقوم بـ«تثقيف قسريٍّ» (Forced Acculturation) -بتعبير الباحث إكْوُرو-[١].

من هذا التّثقيف القســري: قيام أوباما بجولةٍ بإفريقيا (٢٠١٥م)، وإملائه على رؤساء الدول حماية حقوق الشّاذين جنســيّاً (LGBT)، وربطه المســاعدات الأمريكية للدول الإفريقية بالتزام تلك الدول بهذا الأمر، وقد وضعت خُطَبُه بعض رؤســاء إفريقيا فــي موقفٍ لا يُحســدون عليه أمام شعوبهم التي لم تزلْ تعارض بشدّةٍ وبعنفٍ الشّاذين جنسيّاً- كما الحال في يوغندا وكينيا-.

هذا، ومــن المظاهر التي بدأت تُقلــق المراقبين من تأثيرات العولمة على إفريقيا: غلبة قِيَم الأنانية على الأفراد، والانسلاخ من مفهوم الأسرة الموسّعة ومتطلّباتها، والادّعاء أنّ ثقافة التعاون الإفريقية هي المسؤولة عن الفقر، ومنها: اللّهث وراء المادة على حســاب القيَم الدّينية والإنســانية والأخلاقيــة، هذا في ظلّ الرُّكون إلى ثقافةٍ اســتهلاكية لا إنتاجية، وتلك ظواهر اجتماعية جديدة لا تخطئها العين في المجتمع الإفريقيّ المعاصر[٢].

٢- حكومات:

لا نــكادُ نجد نشــاطاً ملموســاً من لــدُن الحكومات الإفريقية ما بعــد الكولونيالية في المجــال الثقافي، وفي وضع مشــروعات ثقافية جادّة. ومن المعروف وجود وزارة للثقافة فــي كلّ دولةٍ إفريقية، وكذلك الأجهزة الأخرى التي يُســمّيها الباحث بينيتْ (Tony Bennett) بـ«Culture Complex (الثقافــة المجمّعة)، من مكتبــات، ومتاحف، ومواقــع تراثية، ومعاهــد، وغيرها[٣]؛ لكــنّ تلك الأجهزة مهمّشــة، وبعضها ضالعةٌ في الحرب على الثقافة الإفريقية (وســائل الإعلام خاصّة). ولعلّ مــن الظّلم تحميل وزارات الثقافــة وحدها مســؤولية هذا الوضع؛ إذ هــي جزءٌ في الحكومة الهشّــة، فليس المنتظر منها أن تختلف عن سائر الأجهزة الحكومية. بل إنّ الشّــعب الإفريقيّ مســؤولٌ- إلى أبعد الحدود- عن التردّي الثقافي في المجتمع.

أمّا على مستوى منظّمة الاتحاد الإفريقيّ؛ فنجد عندها مذكرة «ميثاق البعث الثقافي الإفريقي» (٢٠٠٦م) بالخرطوم، وتتكوّن مــن (٣٩) مادّة، نُصّ في المــادّة الثّالثة منها على: «التّأكيد علــى كرامة الأفارقة، رجالاً ونســاء، وعلى البنى الشّــعبية لثقافتهم، والترويج لحرية التعبير، والديمقراطية الثقافية»[٤]، ويبدو أنّ البعث المشار إليه؛ لم يتجاوز مستوى الإعلان. وفي فتــرة إعداد هذه الورقــة؛ احتضنت باماكو (عاصمــة مالي)، فــي (٢٣-٢٤ ينايــر، ٢٠١٨م)، فعاليّات الدّورة الأولى لليــوم العالميّ للثقافة الإفريقية والمنحدرين مــن أصولٍ إفريقيــة (JMCA)، وذُكر أنّ الإعلان عن هذا اليوم وإجراء الفعاليّات يهدف لتعزيز ثروة إفريقيا وتنوُّعاتها ومساهماتها في الثقافات الأخرى[٥]، وأنّ المبادرة جاءت من

.8-Papers and Reviews, Vol. 2(1), 1

(١) Ekwuru, G. (1999). «The Pangs of an African Culrute in Travail, Owerri Totan Publishers.

(٢) Ajayi, SI. (2003). « Effects of Globalization and Equity in Subsaharan Africa : The Myth and the Reality.“

(٣) Bennett, T. (2013). Making culture, changing society. London, England: Routledge, 30.

(٤) النص بالإنجليزية، لم نتمكن من الحصول على النسخة العربية. Charter for African Cultural Renaissance, 2006

(٥) http://m.geopolis.francetvinfo.fr/afrique-une-journee-pour-celebrer-la-culture-dans-tous-ses-etats-173583 1/

جمعيّات غير حكومية.

وهنا؛ لابدّ من وقفة لمباركة بعض المبادرات التي تقوم بها بعض الـدول، وبخاصّة الدول العربيـة، لدعم الثقافة الإفريقية، منها: وجود سلسـلة مـن المعاهد والأكاديميّات للدراسات الإفريقية: في السودان ومصر والمغرب، ومجلّات مثل «قـراءات إفريقية». وفي العـام الماضي نظّمت مصر الملتقى الدولي للثقافات الإفريقية بإشـراف وزير الثقافة المصـري، ذُكر أنّ مائـة باحث ومفكّر وروائـيٍّ وفنان من عشرين دولة إفريقية قد حضروه[١]. أيضاً: تمّ تأسيس معهد باسم «المعهد الثقافي العربي» بمدينة بَاماكو/مالي، بتعاون بين الاتحاد الإفريقـيّ وجامعة الـدول العربية (٢٠٠٢م)؛ بهدف تقوية العلاقات الثقافية بين إفريقيا والعالَم العربي، وذلك عبر تحقيق المعرفة المتبادلة بين الشُّعوب الإفريقية والعربيـة من خلال ثقافاتهما[٢]. كما تقوم جامعة ماكيريري (Makerere Univ.)/يوغندا بعقد تجمُّع سَنَويٍّ للمفكّرين والكُتّاب الأفارقة منذ الفترة الاستعمارية.

كلُّ هذه مبادراتٌ مباركة، ينبغي تشجيعها في ظلّ الإهمال الواضح من الحكومـات الإفريقية الأخرى. ومن المفارقة أن نجـد وزراء الثقافة الفرنكوفونيّين، في اجتماعهم السّـنوي بأبيدجـان (Declaration d'Abidjan ٢٠١٧)، يدعـون إلى التعدُّد الثقافي، ولكنّهم يخصّصون فقرة في هذا الإعلان تصرّح بأنّ «النّموذج الفرنكوفوني للتّعايُش السّلمي القوي بين الثقافـات» هو النّموذج الأمثل[٣]! وهذا يقوّي رأينا القائل بأنّ بعض الأجهـزة الحكومية بإفريقيا ضالعـةٌ في الحرب على الثقافة الإفريقية، وعلى الوئام العالميّ بين الثقافات.

٣- منظّمة الفرنكوفونية:

كان الظُّهـور الأوّل لمصطلـح «فرنكوفونيـة» على يد العالِـم الجغرافيّ الفرنسـي أونزيـم ر. (O. Recluse, ١٩١٦.d) عـام (١٨٨٠م)، وكان يعني بـه التوزيع الجغرافي البحْت للغة الفرنسـية حول العالم. لكن سرعان ما اكتسب هذا المصطلح بُعداً سياسـيًّا ثقافيًّا؛ لتعني نشـر الثقافة الفرنسـية، واستقطاب الدول التي اسـتعمرتها فرنسا؛ من أجل تحقيق أهداف فرنسا الإمبريالية[٤]، أو كما يقول الناقد مارتن (Guy Martin)؛ فإنّ: «الفرنكوفونية، بكلّ هياكلها؛ لهي الواجهة السّـاترة للمشـروع الحقيقيّ الفرنسـي، أي اسـتمرار الإمبريالية، وضمان اعتماد مستعمراتها القديمة عليها بأيّ وسيلة»[٥].

عليه؛ فإنّ الفرنكوفونية بهـذا التّحوُّل، وبهذه الصّبغة الإمبريالية، تمثّل تحدّياً كبيراً في وجه الثقافة الإفريقية.

وتكمـن خطـورة الفرنكوفونية الأولى فـي محاولتها القضـاء على كلّ مـا يربط بيـن الأفارقة، وجعْـل اللُّغة والثقافة الفرنسـية هي الرّابطة بينهم عن طريق شـعارات كثيرة مضلّلة، مثل: «الثقافـات الفرنكوفونية» (Cultures Francophones)، ومنها: «الأسـرة الفرنكوفونية»، وكأنّ الفرنسـية هي الجامع بين شـعوب المشـرق والمغرب، لا الرّوابط التاريخية الغارقة في القِدَم. بل إنّ التّسـمية- كما يؤكده الباحث إريلي- فيها مغالطةٌ واضحة؛ حيث إنّ الدول التي يُراد أن توصف بأنّها «فرنكوفونية» لا تمثّل الفرنسـية فيها اللُّغة الغالبة، ففيها لغاتٌ أكثر انتشـاراً من الفرنسـية في التواصل اليومي وفي الثقافة والتجارة، كالعربية وهَوْسا ومادينغْ وفولاني، فالفرنسـية في جميـع البلدان الإفريقية إنّما هـي لغة الأقلية الإدارية فـي الدوائر الحكومية، وفي المناسبات الرّسمية فحسب[٦].

على كلٍّ؛ فإنّ الفرنكوفونية تكتسب قوّتها وخطورتها في استغلال فرنسا للحكومات الإفريقية، وتجنيدها للسياسيّين الأفارقة من أجل الكفاح للفرنكوفونية، أي أنّ الفرنكوفونية

(١) كان المؤتمر تحت شعار «الثقافات الشعبية في إفريقيا»»، بتاريخ ١٣-١٦ نوفمبر، ٢٠١٧م، بقصر ثقافة أسـوان، وتنظيم جامعة أسوان.

(٢) See: www.afroarab-institute.org/

(٣) OIF. Declaration 4e Conference Ministerielle de la Fracophonie sur la Culture, Abidjan 22-23 Jul. 2017.

(٤) بَمبا، آدَمَ. (٢٠١٣م). روايات غرب إفريقيا الفرنكوفونية: دراسـة في المفهوم والأبعـاد الإسلامية، مركز البحوث بالجامعة العالمية الإسلامية ماليزيا، ٤٢.

(٥) Le Vine, victor, T. Politics in francophone Africa, 340.

(٦) Irele, Abiola. & Biodun Jeyifo, The Oxford Encyclopedia of African Thought, 390.

أصبحت جزءاً من المهمّة السياسية في جميع البلدان الإفريقية المنضوية تحت هذه المنظّمة- طوعاً أو كرهاً- (عدد الدول الأعضاء في إفريقيا جنوب الصّحراء ٢٦ دولةً؛ من مجموع أعضاء الدول الفرنكوفونية الـ٧٧).

ومن الأدلّة المباشرة على الاستغلال الفرنسيّ للحكومات وجود وزير خاصٍّ بالفرنكوفونية بكلّ بلدٍ من بلدان الفرنكوفونية، أو إضافتها إلى مهامّ وزير الشؤون الخارجية، فيقال: وزير الشُّؤون الخارجية ووزير الفرنكوفونية. كما أنّ مختلف الوزارات بالبلدان الفرنكوفونية تقوم باجتماعات دورية سنوية غالباً، مثل قمّة وزراء الثقافة الفرنكوفونيّين. إلى غير ذلك من الهياكل الحكومية وغير الحكومية الصُّغرى التي ترغب في تكوين نفسها في تجمُّعات فرنكوفونية؛ ممّا يجعل من الحركة الفرنكوفونية أخطبوطاً حقيقيّاً متغلغلاً في جميع الشّرائح المجتمعية.

كما تشارك كلُّ دولة فرنكوفونية في رصد ميزانيّات ضخمة للتّرويج للفكر الفرنكوفوني عبر الفنون الأدبية المختلفة، في الشعر والرواية والسّينما والمسرح، وفي الاحتفال باليوم العالمي للفرنكوفونية (٢٠ مارس)، وألعاب الفرنكوفونية (Jeux de la Francophonie)، وهي بمثابة الألعاب الأولمبية، وكان آخرها العام الماضي (٢٢-٢٣ يوليو، ٢٠١٧م) بأبيدجان.

هذا، وتوجد مناهضةٌ كبيرة للمشروع الفرنكوفونيّ من لدُن بعض المفكّرين، وبعض الهياكل المجتمعية، فلا يُعقد اجتماع الفرنكوفونية السّنوي في بلد إلاّ وتقوم مظاهراتٌ ضدّها.

٤- شبكات التواصل الاجتماعي:

تقوم شبكات التواصل الاجتماعي بدور الوسيط في إحداث التأثير القويّ في الثقافة الإفريقية تشكيلاً وتوجيهاً، شأنها في ذلك شأنها مع سائر الثقافات والمجتمعات حول العالَم. ونظراً لندرة المعلومات عن استخدام شبكات التواصل الاجتماعيّ بإفريقيا؛ فإنّ الدراسة الحالية لم يتأت لها الوقوف على مصادر دقيقة في هذا المجال؛ لكن ما تمّ الوصول إليه من معلومات يعطي صورةً إجمالية عن تنامي استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وتأثيرها الثقافي في فئة الشباب خاصّة.

ففي عام (٢٠٠٨م)؛ أظهرت الإحصاءات أنّ السنغال وجنوب إفريقيا، وحدهما- من بين دول إفريقيا جنوب الصّحراء- كان بهما مستخدمون لشبكة فيسبوك (www.lemonde.fr)، وسرعان ما ارتفع هذا العدد عام ٢٠٠٩م إلى ١,١ مليون مستخدم لفيسبوك في دول إفريقيا. ويمثّل مستخدمو الإنترنت بإفريقيا حاليّاً (٢٠١٧م) نسبة ١٠٪ من مستخدميها حول العالم. هذا بالإضافة إلى ظهور بعض الشبكات بوصفها نُسخاً محلية للشبكات العالمية، مثل: LinkedAfrica، وشبكة Ugandan Facebook وشبكة Yookos Nigeria، ويبلغ تعداد مستخدمي بعض تلك الشبكات الملايين.

أمّا مستخدمو الإنترنت وسائر شبكات التواصل الاجتماعي بإفريقيا؛ فهُم من فئة المراهقين والشباب، ففي إحصاء تبيّن أنّ نسبة (٣٥-٤٠٪) من مستخدمي الإنترنت في (٤٩) دولة إفريقية، هم دون الخامس والعشرين من العمر. وفي دراسة مشابهة بجمهورية جنوب إفريقيا وحدها (٢٠١١م)؛ تبيّن أنّ نسبة (٧٣٪) من المستخدمين، البالغ تعدادهم (٤٤) مليون نسمة، هُم من المراهقين والشباب في الفئة العمرية (١٣-٢٥)[١].

أمّا عن عادات استخدام شبكات التواصل وأهداف أولئك المستخدمين؛ فقد كشفت دراسات عن كون «المحادثة، والبحث عن العلاقات» في قمّة عادات التّصفُّح عبر الفيسبوك خاصّة، ففي نيجيريا وجد الباحث إداكوو (Idakwo, ٢٠١١) أنّ هذا الهدف يمثّل نسبة (٥٨٪) عند المستخدمين الشباب. بينما لم يبلغ هدف «الترويج لبضائع» أكثر من (٤٪) عند المجموعة. كذلك وُجد أنّ الشباب الأفارقة يقضون أكثر الأوقات على شبكات التواصل، جاء تأكيد ذلك في دراسة قامت بها منظمة الأمم المتحدة، ونشرتها في مجلتها، وأظهرت أنّ مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعيّ بإفريقيا هُم أكثر المطيلين في استخدامها؛ حيث يبحرون عبر هواتفهم النّقالة، وليس الحواسب.

ومن صُوَر التحوُّل الثقافيّ- التي انتشرت بشكل مباشر مع شبكات التواصل- ظاهرة العنف، وضحاياها عادةً المراهقون والنساء؛ حيث تتعرّض هاتان الفئتان لصُوَر عدّة من العنف: من تهديد، وسباب، وإرسال صُور ساخرة

(١) See: www.socialbakers.com

مُحرجة، والتشـهير بالشـخص، وقد يصـل إلى اختطاف الضّحية، وقتلها.

أيضاً: فإنّ شبكات التواصل الاجتماعيّ هي المسؤولة عـن تفكيك بعض الأسـر؛ حيث يُقدِم بعـض الأزواج على الطّـلاق أو- حتى- قتل زوجاتهم بسـبب رسـائل غرامية اكتشفوها في هواتفهنّ.

هذا، وتحـاول بعض الدول الإفريقية، وغيرها من دول العالَم، تدارُك سـلبيّات وسائل الاتصال بسَنّ قوانين تُعرَف بأخلاقيّات المعلومـات (Information Ethics)، وهي القواعد الأخلاقية كما يُعرّفها ليمو (Limo, ٢٠١٠): «التي تحدّد ما يجوز وما لا يجوز فعله في مجتمع معلوماتي».

تجدر الإشـارة إلى وجود الكثير مـن الأفراد والهياكل المجتمعية التي تسـعى إلى «ترويض» الإنترنت وشـبكات التواصـل الاجتماعي؛ من أجل الترويـج للثقافة الإفريقية، وإذكاء الوعـي بالهوية، فهناك مواقـع كثيرةٌ- دينية أو غير دينية- تعمل في هذا المجال.

ومن مواقع فيسبوك التي تروّج لمبادئ البان أفريكانية: Pan-African Network, The Pan-African Movement Reborn, Pan-African fundamentalism, Being pan-african.

ويعدُّ أعضاء بعض تلك المجموعات بالآلاف.

كما أنّ المواقع والمجموعات المتخصّصة في استخدام اللُّغـات المحلية كثيرة، ومعظم تلـك المجموعات تناقش- عادةً- موضوعات ثقافية واجتماعية مهمّة.

أيضاً: توجد تجمُّعاتٌ شـبابية كثيرة، وهي إلى جانب تمحورها حول الشـأن السياسـي الاجتماعي، والمطالبة بالديمقراطية، وإدارةٍ رشـيدة، تُعنى أيضاً بالشأن الثقافي والضبط الاجتماعي للجيل الشـاب، ويقـوم أولئك بأدوارٍ إيجابيـة عبر شـبكات التواصل الاجتماعـي. وتُعزى إلى بعـض تلك التجمُّعات الثورات التي أطاحت ببعض رؤسـاء الدول المعاصرين. منها في السّـنغال «Y'en a marre!» (متضجّر!)، وفي مالـي «Yere-wolo ton» (تجمُّع أبناء الحلال)، وفي بوركينافاسـو «balai citoyen» (مكنسـة المواطن- لعلها إشارة إلى قيام المواطن بتنظيف البلد معنويّاً وماديّاً)، وفي كونغو الديمقراطية «Filimbi»- بالسواحيلية؛ (أي صفارة- إشارة إلى قيام المواطن المخلص بالتبليغ عن المخالفـات القانونيـة)، و «La Lucha» (اختزال للتعبير الفرنسي la lutte pour le changement؛ أي النضال من أجـل التغييـر (la lu/cha)، وفي غابـون «ca suffit comme ca!» (كفى!).

المثقفون الأفرو-عرب:

يُعَدُّ الجيل المعاصر من الشـباب الأفارقة المسلمين، الذين درسـوا بالجامعات العربية، شريحةً جديدةً من النُّخب الثقافيـة ذات الثّقل المعتبر في الشـأن الثقافي بإفريقيا، ويُشار إلى هذه الشـريحة بالمصطلح الفرنسـيّ المستفزّ «Arabisants» (متعرّبون)؛ لأنّ معنى التّكلُّف واضحٌ هنا في صيغة «تفعّل»، ولأنّ المقابل «Francisants» غير مستعمل للإشـارة إلى المثقّفين بالفرنسـية. وقد بدأت الدراسات الغربية تُعنى بهذه الشّريحة، وترصدُ بعض المجموعات التي بدأت تتقلّد مناصب قيادية في الحكومات الإفريقية، من ذلك دراسـة: ماري ميرانْ في كوت ديفوار[١]، وماري بروسير في السّنغال[٢]، وامبايْ لو ومحمد هارون عن إفريقيا عامّة[٣].

فـي هذا السّـياق؛ يبدو أنّ الإشـكال الجوهري: عدم الوعي الحقيقي لهذه الشـريحة بمركزها وبالدَّوْر الحضاريّ المنـوط بها، فعلى الرّغـم من الازديـاد الملحوظ لأعداد خريجي الجامعات العربية بإفريقيا؛ فإنّ حضورهم وتأثيرهم الشّـعْبَويّ لا يـوازي الكثافة العددية والنوعيـة لهم، بل إنّ كثيراً من أولئك هم جزءٌ من الإشـكال الثقافي؛ بركونهم إلى الفقهيّات غير الواقعية والرُّؤى الضّيّقة عن الحياة الإفريقية.

هذا، ومن المبادرات المباركة إنشاء خريجي الجامعات العربيـة جامعاتٍ جديدة كثيرة بإفريقيـا، ومن المرجوّ أن تنـزل تلك الجامعات نزولاً حقيقيّـاً إلى الأرض الإفريقية، وأن تتناغم مناهجها ومساقات مقرّراتها الدراسية بالثقافة

(١) Miran, Marie. (1998). "Youth, Islam, and Changing Identities in Bouake", 1998.

(٢) Brossier, Marie. (2016). "Senegl's Arabic Literates ».

(٣) Mbaye Lo, Muhammed Haron (ed). (2016). Muslim Institutions of Higher Education in Postcolonial Africa, Palgrav.

الإفريقية، لا أن تكون جزءاً في «التصدير العام» الذي مُنِيَت به القارّة الإفريقية في جميع المجالات.

ولعلّنا نستأنس هنا بمقالٍ حول رصد الحركة الثقافية بإفريقيا بين دارسي العربية، وبنيجيريا خاصّة، ذهب فيه الباحث «الخضر عبدالباقي» إلى- مع التأكيد منذ الجملة الأولى- أنّ المشهد الثقافي قد «نشط في البلدان الإفريقية غير العربية، وشهد حالةً من التحسُّن والتنامي في السنوات الأخيرة بعد عقودٍ عجافٍ من الجمود والرُّكود الدائمين». وللتدليل على ذلك؛ فقد أورد الباحث مجموعةً من أسماء الكُتاب النيجيريّين بلغت (٢٢) في مجال الكتابة الإبداعية: في المسرح (٣ نماذج)، والرواية (٢)، والترجمة إلى العربية (٢)، وأدب الرحلات (١)، والسيرة الذاتية (١)، والشِّعر (٦)، والنقد الأدبي (٧). وأقدَمُ هذه الأعمال هو مسرحية «العميد المبجّل» لزكرياء حسين (١٩٩٤م)[(١)].

الملاحظ هنا: أنّ الباحث قد اقتصر على المجال الأدبي وأغفل المجالات الأخرى، مثل الدراسات الفكرية، ونحسب أنّ ثمّة دراسات من لدُن الباحثين النيجيريّين موجودةٌ في هذه المجالات. ثم إنّنا لا نكاد نرتضي هذا العدد القليل من النّتاج «الفكري» للمثقفين الناطقين بالعربية في نيجيريا؛ لأنّه لا يتناسب وإحصاء دارسي العربية النّيجيريّين، كما لا يتناسب وتاريخ التعليم العربيّ بهذه البقعة، وحتى مع احتمال اقتصار الباحث على ذكر القليل من النماذج؛ فإنّ ما لم يُذكر لا يكاد يفي بالغرض؛ إذْ إنّ النّماذج المذكورة هي أبرزها. كما لا نرتضي عند المثقفين النيجيريّين، وغيرهم، غياب الدراسات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية الإفريقية، ولعلّنا جميعاً نتدارك هذا النقص بما سبقت الإشارة إليه في الفقرة أعلاه، وهو التركيز على نوعية مناهج الجامعات «العربية» الحديثة بإفريقيا، وتكوين جيلٍ جديدٍ من الباحثين المتخصّصين في الثقافة الإفريقية بمعناها الواسع.

في محاولة للختام:

بعد استعراض الثقافة الإفريقية وأهمّ المؤثّرات فيها؛ يجدر طرح سؤال: تُرى.. ما مستقبل الثقافة الإفريقية في ظلّ هذا التشخيص؟ وهنا لابدّ أوّلاً من تقرير أمرَيْن اثنَيْن:

١- أنّ التبدُّل والتطوُّر سنّةٌ إلهيّة في الكون: وعليه فإنّ الثقافة الإفريقية- أو أيّ ثقافة- لابدّ لها من التغيير، وقد أوضح ذلك الباحث أوكولو بأنّ كون الثقافة دينامية، وكونها وسيلة للتكيُّف مع الحياة، فإنّها- حتماً- لابدّ لها من التغيُّر؛ لأنّ نوعية الحياة التي تسعى الثقافة لتحقيق تكييف الإنسان بها في تبدُّلٍ مستمر[(٢)]. بتعبير آخر: إنّ الثقافة لا تكون ثقافةً وهي ثابتة، لابدّ لها من التّغيُّر بما يُحقّق انسجام الإنسان بواقعه.

٢- التطوُّر الطّبيعي: إنّ التطوُّر المقرّر هو الذي يتمُّ جرّاء التلاقح الطبيعي بين الثقافات، أو التغيُّر الطبيعي المتدرّج لحقائق الحياة. أمّا التّغيُّر الفجائيُّ المفروض على الثقافة (كما تفعل العَوْلمة)، فليس تطوُّراً صحيّاً، إنّه زائدة دودية سرطانية سرعان ما يلفظها الجسم.

بعد الإقرار بسُنّة التطوُّر الحتمي؛ فإنّ المتوقّع أنّ الثقافة الإفريقية سوف تشهد اضطراباتٍ جدٌّ عنيفة نتيجةً لتراكمات العناصر الغربية المدسوسة في هذه الثقافة، فكما عشنا- ولا نزال- اضطراباتٍ سياسية، وحروباً أهلية لا حصر لها بالقارّة، فإنّ الفوضى الثقافية سوف تنتج لنا مضاعفاتٍ غير مرغوبة فيها على الإطلاق!

إذنْ؛ إذا ما أُريد تلافي هذا المصير المرتقب- نرجو ألاّ نكون متشائمين- فإنّ على إفريقيا العمل من أجل الإمساك بالزّمام الثقافيّ فيها، والتحكُّم- ما أمكن- في تحديد مسار «الماكينة» الثقافية نحو الوجهة الصحيحة للمستقبل الإفريقي، ولابدّ هنا من خوض حربٍ ضروسٍ ضدّ القوى الكثيرة المذكورة ذات المنفعة المباشرة في المسخ الثقافيّ بالقارة، من عَوْلمة وفرنكوفونية وغيرها.

تجدر الإشارة إلى أنّ إفريقيا ليس من المعقول أنّ تخوض هذه الحرب بمفردها؛ فهذا ليس من سمات عصر

(١) الخضر، عبدالباقي محمد. «المشهد الثقافي العربي في إفريقيا: من الجمود إلى الحراك»، انظر: www.kenanaonline.com

(٢) Okolo, C. B. (1993). What is to be African? Enugu, Cecta. Nigeria, 32. In: Ebujuwa T. "cultural Identity and the future of Africa", J. of Philosophy and Culture, , 49.

التكتُّلات.. لابدّ لها من الانضمام إلى معسكر قريب إليها، ذي الاهتمام المشترك، وهذا المعسكر القريب، بلا تردُّد، هو المعسكر العربيُّ. ولعلّ رائد هذه الفكرة هو المفكّر «علي الأمين مزروعي»، صاحب مفهوم «Afrabia»، وكان يؤمن بأنّ العلاقة بين إفريقيا والعرب علاقةٌ ضاربةٌ في القِدَم، وأنّ العرب كانوا جزءاً من إفريقيا حتى قبل فترة انزياح القارّات، وأنّ تقسيم القارّة إلى شمال إفريقيا وجنوب الصّحراء تقسيمٌ مفتَعَل، وقد أفاض في هذا الموضوع في برنامج وثائقيٍّ لـ(BBC : Africa: A Triple Heritage, ١٩٨٦)، ثم في كتاب أشاد فيه بالميراث الثُّلاثيّ لإفريقيا: (الإسلامي، والنصراني، والأديان الإفريقية)، وخالفه في هذا الرّأي «وولي شوينكا» بموقفه المساند للأديان الإفريقية؛ بوصفها الميراث الأوحد للثّقافة الإفريقية[١].

وقبل الانضمام إلى المعسكر العربيّ، أو غيره من الثقافات ذات الاهتمام والمصير المشترك، فإنّ الدول الإفريقية لابدّ لها أن تعود إلى تفعيل ركيزة «الحسّ المجتمعي» (Communalism) المشار إليها في المحور الأوّل من هذه الورقة، فالملاحظ في إفريقيا غياب مشروعٍ ثقافيٍّ مشترك، على الأقلّ، بين الدول المجاورة، ومن المغالطة الواضحة، ما تتشدّق به بعض الحكومات الإفريقية في الدول القُطرية الحديثة حين توهم مواطنيها بوجود «ثقافة وطنية»، وكأنّ الظّاهرة الثقافية تخضع للحدود الجغرافية الوهمية المصطنعة في برلين (١٨٩٨م). فلابدّ من تفعيل المناطق الثقافية الكبرى بالقارّة، وتجاوز ثقافة الدّولة القُطرية في معالجة المشكلة الثقافية.

إلى جانب ذلك؛ يجب ألا يُشغلنا المارد الغربيُّ عن سائر القوى الصّاعدة ذات النّزعة الاحتوائية (الصّين خاصّة)، وقد لاحظ بعض الباحثين كثرة المعاهد والمدارس الكونفشيوسية بالقارّة، وهي تقريباً تؤسّس بأرقى الجامعات الإفريقية، ويحتلُّ تمثال كونفوشيوس العملاق بوّابات تلك الجامعات، ويحظى الطُّلاب والأساتذة المنخرطون في برامج تلك المعاهد بامتيازاتٍ تجعلهم محلّ غبطة[٢].

لابدّ من تفعيل المناطق الثقافية الكبرى بالقارّة، وتجاوز ثقافة الدّولة القُطرية في معالجة المشكلة الثقافية

أخيراً: فإنّ إفريقيا لا تكسب الحرب الثقافية إلاّ إذا خاضت غمار هذه الحرب خوضاً حقيقيّاً، وأصبحت تعطي و «تُسوّق» ثقافتها للعالَم، فهذا من ضمن واجباتها، ومن حقوق المجتمع البشريّ على إفريقيا، وقد سبق أنّ من ركائز الثقافة الإفريقية «الحسّ المجتمعي»، ومن لوازم هذا الحسّ ألاّ يستأثر الفرد أو المجموعة بما يملك، لابدّ من العطاء المتواصل، وهذه الرُّؤية ليست- على الإطلاق- فكرةً طوباوية، فالزّمان لا يعدم حكماء في كلّ مكانٍ، ممّن ينشدون الحكمة ويقبلونها أينما وجدوها، وقد سبق المفكّر «مالك بن نبي» إلى تحديد الدَّوْر الإفريقيّ في العصر الرّاهن بعد قيامه بتشخيص الثقافات حول العالَم، ووصف الثقافة الغربية بأنّها «ثقافة إمبراطورية»، وأنّها قد أدخلت البشرية في مأزقٍ حادّ، وفي متاهةٍ تاريخية معقّدة، ودعَا إلى ضرورة إدماج الثّقافة الإفريقية في التخطيط العالَمي؛ لما في هذه الثقافة من قِيَم أخلاقية وجمالية سلمية، قال: «إنّ العالَم مثقّلٌ بالعلم وبثقافة الإمبراطورية، إنّه يضجُّ بروح الحرب وبوسائل الحرب، ولكن هناك فراغاً كبيراً من الضمير ينبغي له أن يمتلئ، وعلى الثقافة الإفريقية أن تتحدّد طبقاً لهذا»[٣]، والسُّؤال: هل إفريقيا مستعدّة لهذه المهمّة الحضارية؟ وكيف يتمُّ ذلك؟ لعلّ دراسات مستقبلية تجيب عن هذه الأسئلة ■

(١) Seifudein, Adem (ed). (2016). A Giant Tree has fallen, African Perspectives Publishers, 99-102.

(٢) NAM, "How China confucius affect African Culture", New African Magazine, 25 /1/2018.

(٣) المشكلة الثقافية، ترجمة عبدالصبور شاهين، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٤، ٢٠٠٠م، ص١٢٦.